اقرأ ١٥٩

رئيس التحرير أنيس منصور

عميد أ.ح. محمد فريد السيد حجاج

مذكرات الزعيم أحمد عرابى

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فى مثل هذا العام منذ مائة عام كانت بداية الثورة العرابية ، هذه الثورة التى تعتبر من العلامات المضيئة فى تاريخ الشعب المصرى ، وتعرضت الثورة العرابية لمسميات عدة : مَنْ قال إنها فتنة عسكرية . ومن قال إنها هوجة عرابى ، ولكن المنصف من المؤرخين للتاريخ يضع هذه الثورة فى مكانها الصحيح فى تاريخ مصر الحديث ، وأنها كانت انتفاضة شعبية تلاحَم فيها جيش مصر وباقى طوائف الشعب للذود عن الوطن والعيش فى كرامة وحرية ، ولولا أصابع الخيانة والتدخل الأجنبى – سواء الإنجليزى أو التركى – لكان نجاح هذه الثورة مؤكدًا . ولكانت نقطة انطلاق لمصر ، والحقيقة أن الثورة العرابية هى إحدى الحلقات الرئيسية فى تاريخ مصر الحديث ، ومن الواجب على المصريين أن يعيدوا دراسة تاريخهم بعمق واتزان وبدون حساسيات ، ويتدارسوا العبر والدروس المستفادة ، لأن تاريخ كل أمة من الأمم هو المرجع الذى يمكن أن يرجعوا إليه للاستفادة به ، فما كان صوابًا يحسنوه ويستمروا عليه ، وما كان خطأ يجتنبوه ، وما التاريخ إلّا مسرح كبير تعاد عليه

المسرحيات ولكن بأشكال مختلفة ، لهذا كان من الأهمية دراسة الثورة العرابية كحركة وطنية ووثبة من وثبات التحرير ، مع دراستها ومعرفة أصولها وفروعها وأسباب النجاح والفشل ، كل هذا يجب أن يكون بعيدًا عن الأهواء . .

ولو نظرنا للثورة العرابية وأسبابها لا يمكن أن نحجب النظر عن الفترة الزمنية القصيرة التى سبقت الثورة . بل يجب أن يكون نظرنا أبعد من ذلك بكثير ، فإن الأطماع الأوربية – وخاصة الإنجليزية والفرنسية – بدأت تضع مصر فى دائرة أطماعها بدءًا من الحملة الفرنسية على مصر ، فلقد سلطت هذه الحملة الضوء على أهمية مصر وموقعها ، وبدأ الإنجليز من ذلك الوقت يتحينوا الفرصة للاستيلاء عليها وضمها إلى إمبراطوريتهم . .

فلقد انتهز الإنجليز فرصة طرد الحملة الفرنسية من مصر ووجهوا إلى مصر حملة فريزر عام ١٨٠٧ بغرض ضم مصر إليهم ، والتى استطاع الشعب المصرى فى مدينة رشيد القضاء عليها ، وتم طرد هذه الحملة ، ولكن عين بريطانيا كانت دائمًا على مصر . وبعد تولى محمد على حكم مصر كانت بريطانيا له بالمرصاد ولم تعط الفرصة له لإقامة دولة قوية فى مصر ، وكانت وراءه بالمرصاد وعندما وجدت أن الجيوش المصرية تدق أبواب إستانبول عاصمة آل عثمان أثارت الدول على محمد على وعملت

على طرده من الشام ، ولم تكتف بهذا بل عملت على تكبيل وتعبيد مصر والعمل على وَأْد هذه القوة الجديدة وذلك بإبرام معاهدة لندن عام ١٨٤٠ وما تم بعد ذلك من تسويات فى عام ١٨٤١ ، وبذلك وضعت أول القيد فى مصر.

ثم ظهر فى الأفق مشروع حفر قناة السويس ، ليكون ممرًا بحريًا يربط الهند بالغرب عبر مصر ، وعارضه محمد على وكذلك عباس الأول ، ولكن فى خلال عهد والى مصر سعيد باشا نجح ديلسبس فى إقناعه فى البدء فى حفر قناة السويس مما زاد من أطماع بريطانيا وضرورة التحكم والسيطرة على مصر بعد حفر قناة السويس ، وعدم السماح لأى دولة أخرى بامتلاك مصر ، كل هذا والدولة العثمانية تعانى من أمراضها ولا تستطيع أن تفعل شيئًا غير المكايد والمؤامرات على مصر ، وتلقى الرشاوى ، وأخيرًا تم افتتاح قناة السويس رسميًا فى ١٧ نوفمبر عام ١٨٦٩ وواكب هذا الافتتاح مظاهر من البذخ والإسراف لم تشهد له البلاد مثيلا من قبل ذلك فى عهد خديوى مصر إسماعيل باشا ، وضاقت الحلقات حول مصر.

وبدأ عهد خديوى مصر إسماعيل باشا الذى كان يطمع أن يدفع مصر لكى تساير النهضة الأوربية ولكنه لم يلتفت إلى الجوهر أو المضمون ، بل وضع مجهوده فى إعطاء مصر قشور الحضارة

ومظاهرها ، واضطر إسماعيل باشا إلى الاستدانة من بنوك أوربا ، وبجانب ذلك ما تحملته مصر من نفقات لإنشاء القناة ، وهو ما لا يقل عن ١٦ مليون جنيه ، وهذا ما يزيد على نصف تكاليف إنشائها ، ونتيجة لعجز فرنسا وبنوكها عن إمداد مصر بما تطلبه تحول الخديوى إلى البيوت المالية الإنجليزية ، وسهلت إنجلترا للخديوى إمكانية إمداده بالديون ، وتدخلت بنفوذها لدى الباب العالى لتنفيذ ذلك ، وتوالت الأحداث والأزمات المالية على مصر ووصلت إلى أسوأ حال بسبب حرب الحبشة ، واضطرت مصر إلى بيع حصتها فى شركة قناة السويس وكانت إنجلترا بالمرصاد ، ولم تُضَيِّع الفرصة واشترت حصة مصر بأبخس الأثمان . . وتوالت الأحداث والأزمات المالية حتى طلب الخديوى من إنجلترا إيفاد أحد الخبراء لإنقاذ الحالة المالية ، فأرسلت الحكومة البريطانية لجنة برئاسة المستر « كيف » لكى تقدم تقريرًا وافيًا ، وقد جاء فى التقرير « تشكو مصر من الجهل والإهمال والتبذير . وتشكو أيضًا من كثرة النفقات التى سببها إنجاز مشروعات إصلاحية ولكنها أنجزت بسرعة وبدون دراسة » .

واقترح للعلاج إنشاء إدارة للمراقبة المالية يرأسها موظف إنجليزى .

وهكذا تمت أول خطوة علنية للتدخل فى الشئون المصرية من جانب إنجلترا – و تم إنشاء الرقابة المالية التى أصبحت رقابة عامة على الحكومة

المصرية ، والتى مُنِحَتْ سلطات واسعة فى الإشراف على الدواوين ، حتى وصل الأمر إلى رهن موارد الدول وأراضيها ، وفَرَضَتْ أنواعًا مختلفة من الضرائب ، وكان من قراراتها لتوفير الأموال للحكومة إحالة عدد كبير من ضباط الجيش إلى الاستيداع ، فكان حادث اعتداء الضباط على رئيس الوزراء نوبار باشا وولسن فى وزارة المالية ، ولولا تدخل الخديوى لحصل ما لا تحمد عقباه ، وتعتبر هذه الظاهرة أول نذير بالثورة العرابية ، وتميزت فترة السبعينات من القرن الماضى بنهضة فكرية كبيرة ، فمنذ الحملة الفرنسية والمناخ الفكرى فى تطور وانتشار لكل الأفكار الليبرالية والإسلامية ، فكان لطلاب البعثات فى عصر محمد على الفضل الكبير فى هذه النهضة الفكرية ، كذلك إدخال نُظم التعليم الحديثة ، وانتشار الصحافة ورسوخ أقدامها فى مصر ، وكذلك ظهور شخصيتين كان لهما أكبر الأثر فى نشر الوعى فى دلك الحين وهما « رفاعة رافع الطهطاوى » (١٨٠١ - ١٨٧٣ م) وجمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ - ١٨٩٧ م) كانا عاملين نشيطين فى تنشيط النهضة الفكرية ، ولو نظرنا فى مسار الثورة العرابية لنجد أنها اعتمدت فى فكرها على تيارين فكريين هما التيار الليبرالى والتيار الإسلامى المتحرر - وبينما اكتفى التيار الأول أن يعيش فى كنف السلطة مبتعدًا عن السياسة ومؤمنا بأهمية التعليم كان التيار الثانى تيارًا سياسيًّا بالدرجة الأولى . وفى خضم هذه النهضة

ظهرت قضايا فكرية هامة وكان من أهم هذه القضايا موضوع الحريات العامة والشخصية ، ذلك لأن ضغط الحكم الأوتوقراطى جعل مسألة الحرية من أوائل المسائل التى رغب الإنسان المصرى فى الحصول عليها وخلال هذه الفترة أيضا ظهرت قضية فكرية هامة هى المطالبة بالدستور والحياة النيابية ، وتبلورت هذه القضية فى تقديم النواب والأعيان إلى الخديوى فى أبريل ١٨٩٧ م باللائحة الوطنية والتى شبهها الأستاذ صلاح عيسى فى كتاب الثورة العرابية بالماجنا كارتا المصرية ، ويجب أن نلاحظ أن هذا المطلب كان من المطالب الرئيسية فى الثورة العرابية ، وتبلورت أيضًا قضية القومية وبَدْء ظهور التفرقة بين العروبة والمصرية ، وبدأت القومية المصرية فى التشكيل والظهور على المسرح السياسى المصرى ، ونجاح الوحدة الوطنية فى مصر . ولقد كانت الثورة العرابية أول من نادت بصيحة قومية ناضجة فى تاريخ مصر الحديث هى « مصر للمصريين » ، كما تميزت هذه الفترة بتكوين الحزب الوطنى ، وهو أول تشكيل لحزب سياسى فى مصر فى تاريخنا الحديث . .

وتولى الخديوى توفيق الحكم فى مصر فى هذا المد الثورى العالى ، ولكنه ظل يذكر أن الأجانب هم الذين عزلوا أباه ، ولهذا فقد غالى فى استرضائهم – فألغى الحكم الدستورى ، وحارب دعاة الإصلاح بالتشريد ، وطبيعى فإنه لاقى مقاومة من هذه الهيئات بسبب ذلك ،

وكان على رأس الهيئات الجيش الذى كان لا يزال بعيدًا عن الهيمنة الأجنبية ، ونتيجة لفتح باب الترقى للعنصر المصرى أصبح معظم أفراد هذا الجيش من الضباط والجنود المصريين الذين يجرى فى عروقهم الدم المصرى الأصيل . .

وتذكر بعض المصادر – كما جاء فى كتاب الثورة العرابية للأستاذ صلاح عيسى – أن أحمد عرابى ألف جمعية سرية فى الجيش سنة ١٨٧٦ ، وذلك بعد حرب الحبشة ، ولكنه من الثابت أن أحمد عرابى مارس نشاطًا سياسيًا واسعًا داخل الجيش .

ومن هذا المنطلق بدأت بوادر الثورة العرابية فى الأفق تتجمع . ففى فبراير عام ١٨٨١ م نتيجة لتعنت وزير الحربية الشركسى عثمان رفقى وعزله لاثنين من قادة الآلايات وتعيين بدلا منهم قادة شراكسة ، وبناء على ذلك قدم عرابى وصاحبه الأميرلاى على فهمى قائد الحرس الخديوى والأميرالاى عبد العال حلمى قائد طرة مذكرة لرئيس الوزراء رياض باشا يطلبون فيها عزل عثمان رفقى وزير الحربية وإسناد منصبه إلى وزير وطنى ، فوعدهم رياض باشا بالنظر فى مطلبهم ، ولكن بضغط من السفير الإنجليزى على خديوى مصر قرر مجلس الوزراء محاكمة الضباط الذين قدموا المذكرة ، على أن يقوم وزير الحربية عثمان رفقى بتنفيذ القرار بطريقة سرية . ولم يتبع عثمان رفقى الأصول العسكرية لتنفيذ قرار

المحاكمة ، بل تظاهر بدعوتهم إلى ديوان الوزارة لبحث ترتيبات إجراءات الاحتفاء بزفاف شقيقة الخديوى ، وما كاد ثلاثتهم يدخلون ديوان الوزارة فى قصر النيل حتى تم القبض عليهم وبُدِئَ فى محاكمتهم ، ولما شعر الضباط الوطنيون بما تم تقدم البكباشى محمد عبيد على رأس آلايه نحو قصر النيل وفك قيودهم وحررهم ، وتوجهوا بعد ذلك على رأس آلاياتهم إلى عابدين فأحنى الخديوى رأسه وأذعن للأمر الواقع ، وأعاد الزعماء الثلاثة إلى مناصبهم ، وعين محمود سامى البارودى وزيرًا للحربية ، وبهذا الإجراء انتصر أحمد عرابى الفلاح المصرى ، وكان هذا كافيًا أن يجعله رجلا مرموقًا من العسكريين والمدنيين ، وبهذا دخلت الثورة العرابية أول مراجعها . .

وبعد استقالة محمود سامى البارودى من وزارة الحربية وتعيين إدوارد يكن باشا ابن عم الخديوى ، شعر الضباط الوطنيون فى الجيش أن النية مبيتة للبطش بهم ، وتسرب النفوذ الأجنبى فى الدولة وكبت الحريات والعمل على عدم نجاح قيام حكومة دستورية فى البلاد عملوا على الاتصال برجال الحزب الوطنى وبالأعيان والعلماء ، حدد أحمد عرابى يوم ٩ سبتمبر عام ١٨٨١ م لتحريك الجيش إلى عابدين فى الساعة الرابعة بعد ظهر ذلك اليوم ، وبعد أن اجتمعت الوحدات العسكرية والجماهير المصرية صاح عرابى بكلمته الخالدة للخديوى « لقد خلقنا الله

أحرارًا ولم يخلقنا تُراثًا أو عتادًا ، فوالله الذى لا إله إلّا هو لن نكون عبيدًا من اليوم » وتقدم عرابى بمطالب الجيش والشعب ، وكانت محددة فى إسقاط الوزارة وتشكيل مجلس النواب وزيادة عدد الجيش ، وأخيرًا أذعن الخديوى ، وقبل إسقاط الحكومة ، ووعد بإجابة المطلبين الآخرين وشكل شريف باشا الوزارة . .

وبعد عام ١٨٨٢ ، لم ترق فى نظر إنجلترا وفرنسا هذه النهضة الدستورية وانتصار الشعب ، فقدموا مذكرة فى ٨ يناير ١٨٨٢ ثم تبعوها بمذكرة ٢٦ يناير من نفس العام ، وهى تحوى أن مجلس النواب ليس من حقه تقرير الميزانية ، ولما حاول شريف باشا رئيس الوزراء تفادى هذه الأزمة لم ينجح ، وأصر مجلس النواب على تقرير الميزانية فاستقال شريف باشا وأصبحت السيطرة للحزب العسكرى بإسناد الوزارة إلى محمود سامى البارودى ، ودخلت الثورة مرحلتها الثانية .

ولكن كانت فى الجانب الآخر إنجلترا ترتب آخر الحلقات حتى تقع مصر فريسة لاحتلالها وتضمها للتاج البريطانى ، فبعد القبض على الضباط الشراكسة لاتهامهم بمحاولة قتل عرابى فى شهر أبريل عام ١٨٨٢ ومحاكمتهم أمام مجلس عسكرى وصدر الحكم بإدانتهم والحكم عليهم بأحكام مختلفة ، رأى الخديوى تخفيف الحكم والرجوع إلى الباب العالى – استغلت بريطانيا وفرنسا الموقف وأرسلت أسطولها إلى مصر بحجة

أن دعوة مجلس النواب بدون أمر الخديوى والمجاهرة بخلعه عن العرش تعتبران عمليتين ثوريتين تستوجبان التدخل ، وغلفت الدولتان عملها بأنهما يحميان الرعايا الأجانب . .

وبحضور الأساطيل تقدمت الدولتان بطلب استقالة الوزارة وإقصاء عرابى وتنحية بعض الضباط ، ولما رفضت الوزارة هذه المذكرة قبلها توفيق باستقالة وزارة البارودى فى ٢٦ مايو ١٨٨٢ م . .

وأرغم الخديوى توفيق على إعادة عرابى وزيرًا للحربية فى ٢٧ مايو ١٨٨٢ وبقيت باقى الوزارات شاغرة ، وأصبحت البلاد بدون وزارة مسئولة . .

ولكن كل هذا لن يحقق آمال بريطانيا فى الاستيلاء على مصر ، لأن استقرار الأوضاع فى مصر لن يعطى لها المبررات الكافية بالاحتلال العسكرى لمصر ، فاستغلت مذبحة الإسكندرية فى ١١ يونيو عام ١٨٨٢ م أحسن استغلال ، بهذا أصبح الجو مُهيئًا للتدخل الأجنبى فالخديوى توفيق ألعوبة فى أيديهم وقد مال إلى جانبهم ، والأحوال غير مستقرة ، والبلاد بدون وزارة ، ولم يبق إلّا وجود الذريعة للاحتلال البريطانى لمصر . .

وفى ١١ يولية ١٨٨٢ بدأ الأسطول البريطانى بقيادة الأدميرال سمور ضرب الإسكندرية ، وكان السبب الواهى الذى اعتمد عليه الإنجليز فى

ضرب الإسكندرية هو أن المصريين يقومون بعمل ترميمات لأحد الحصون ، فكان هذا العمل السبب الذى من أجله ضُربت الإسكندرية وعادت من جديد قصة الذئب والحمل . .

وقاومت الإسكندرية قدر طاقتها ، ولكن بعد استبسال الجنود المصريين فى طوابى الإسكندرية تمكن الإنجليز من النزول إلى الإسكندرية ، وفى هذه اللحظة الحرجة انضم الخديوى توفيق إلى جانب الأعداء تمامًا ، وعزل عرابى من وزارة الحربية وأعلن ذلك بإصداره منشورًا عُلّق بشوارع الإسكندرية ، ولكن عرابى لم يمتثل للأمر وشكل المجلس العرفى الذى تكوَّن من وكلاء الوزارات وكبار الضباط والوطنيين ، وانعقد اجتماع يضم قادة الأمة ورجالها ، وصدرت فتوى من هذا الاجتماع باعتبار الخديوى خارجًا عن الدين ، وعدم قبول عزل عرابى ، وبدأت البلاد فى الاستعداد ضد التدخل العسكرى البريطانى . .

وعين عرابى اللواء محمود فهمى رئيسًا لهيئة أركان حرب الجيش المصرى ، وكان من أكفأ الضباط ، وتم وضع الخطة للدفاع عن البلاد ، وقسم اللواء محمود فهمى خطة الدفاع عن البلاد إلى ميدانين : الميدان الغربى ويشمل محور التقدم من الإسكندرية ، والميدان الشرقى ويشمل محور التقدم من اتجاه قناة السويس ، ولم يستطع الإنجليز التقدم

وإحراز أى نجاح فى الميدان الغربى ، وصمد الجيش المصرى ومن خلفه الشعب فى هذا الميدان ، واحتاج أحمد عرابى للمال ، ولكن المراقب المالى الإنجليزى جمع الأموال من الخزانة ووضعها تحت تصرف الإنجليز فى الإسكندرية بعد استيلائهم عليها ، وكانت معركة كفر الدوار من المعارك المشرفة للعسكرية المصرية . .

وتحولت أنظار الإنجليز إلى الميدان الشرقى ، وفى نفس الوقت توقع أحمد عرابى تحول اتجاه الإنجليز لهذا الميدان ، وكان من رأيه ردم قناة السويس ، وذلك بناء على رأى رئيس أركان حرب الجيش اللواء محمود فهمى ، ولكن ديلسبس خدعه وطمأنه بأن الإنجليز لن ينتهكوا سيادة القناة ، ولهذا لم يضع عرابى ثقله من الناحية العسكرية فى هذا الميدان ، وأصابت الجيش المصرى ضربة قوية أثرت فى معنوياته ألا وهو أسر اللواء محمود فهمى ، وبينما عرابى يوالى استعداده تلقى أكبر ضربة قاصمة له ، وكان لها مفعول قوى بين أفراد الجيش المصرى والشعب ، كان ذلك منشورَ العصيان الذى أصدره السلطان عبد الحميد خليفة المسلمين والذى أعلن فيه قرار عصيان أحمد عرابى .

وفى هذا الوقت الذى كان يجب أن يتكاتف الجميع أطلَّ أعوان الخيانة برءوسهم من أوكارهم وعلى رأس هؤلاء الخونة سلطان باشا ، الذى كان يرأس الحزب الوطنى قبل الغزو الاستعمارى لمصر ، ثم أصبح

بعد ذلك مركزًا للدسائس والخيانة ، وانحاز للخديوى والإنجليز ، وأخيرا أصبح نائبًا للخديوى توفيق المرافق للحملة الإنجليزية ، ولقد استمال سلطان باشا باستخدامه شراء النفوس بالمال – بعض البدو الموالين لعرابى ، وعلى رأسهم الطحاوى ، وكانت الضربة الأخيرة لعرابى هى وصول الخيانة إلى العسكريين مما كان له عظيم الأثر فى هزيمة الجيش المصرى فى الميدان الشرقى ، وكان أشهرهم الأميرالاى على يوسف الشهير بخنفس ، والقائمقام عبد الرحمن حسن ، والأميرالاى أحمد عبد الغفار الذى أعماهم الذهب والحقد عن وطنهم الحبيب مصر.

وبدأت العمليات العسكرية فى الميدان الشرقى بعد أن انتهك الإنجليز قناة السويس واقتحموها ، وأنزلوا جنودهم فى السويس والإسماعيلية ، ودارت المعارك بين الإنجليز والجيش المصرى ، وكانت من أهم المعارك معركة القصاصين والتل الكبير ، ولكن عامل الخيانة كان العامل الرئيسى لهزيمة الجيش المصرى ، حيث إن خطة دفاعه قد سلمت إلى الإنجليز ، ولكن بالرغم من ذلك استبسل الجنود والضباط المصريون وكان على رأسهم الشهيد محمد عبيد ، والأبطال : الفريق راشد حينى ، واللواء على فهمى ، اللذان استمرا فى القتال حتى إصابتهم ، ولكن كما ذكرت كانت الخيانة السبب الرئيسى لهزيمة الجيش المصرى . .

وتحرك عرابى إلى القاهرة فى يوم حزين على الأمة المصرية ، ودخلت

القوات الإنجليزية ، وأتمت إنجلترا آخر الحلقات لضم مصر إلى التاج البريطانى ، وقد قام أحمد عرابى وزملاؤه بتسليم أنفسهم إلى القائد البريطانى الجنرال « لو » وتم القبض عليه وعلى بعض زملائه وقُدِّموا للمحاكمة ، وصدر الحكم بإعدامهم ، وخفض إلى النفى إلى جزيرة سيلان ، حيث بقى هناك تسع عشرة سنة بعيدًا عن الوطن ، ولم يسلم الشعب أو مُؤيدوا عرابى من السجن والتشريد والنفى ، وبهذا انتهت الثورة العرابية . .

بعد هذا السرد الموجز لحوادث الثورة العرابية فإنه يمكن تلخيص أسباب فشلها بوجه عام فى الآتى :

١ – الخيانة لمصر والثورة العرابية سواء من سلطان باشا أو مجموعة العسكريين وعلى رأسهم الأميرالاى على يوسف الشهير بخنفس والبدو . .

٢ – انحياز الخديوى توفيق لجانب الإنجليز وخيانته لمصر واستقلالها .

٣ – منشور العصيان الذى أصدره الخليفة العثمانى بإعلان عصيان عرابى .

٤ – أسر اللواء محمود فهمى رئيس أركان حرب الجيش المصرى قبل بدء المعارك فى الميدان الشرقى .

٥ – عدم ردم قناة السويس واعتماد أحمد عرابى على كلمة ديلسبس بأن الإنجليز لن ينتهكوا المرور من قناة السويس .

٦ – عدم التجهيز الجيد لمسرح العمليات فى الميدان الشرقى ، كما تم فى الميدان الغربى .

٧ – حرمان أحمد عرابى من الموارد المالية للبلاد ، وذلك لأن المراقب المالى الإنجليزى أرسل كل الموارد المالية إلى الخديوى فى الإسكندرية والمال عصب الحرب . .

بهذا تنتهى الثورة العرابية،هذه الثورة التى تعتبر إحدى المراحل المضيئة فى تاريخ مصر الحديث،وفى هذا الكتاب نقدم مذكرات الزعيم أحمد عرابى وهى بقلم أحمد عرابى نفسه ، وهذه المذكرات أقرب للسيرة الذاتية للزعيم أحمد عرابى من مذكراته عن حوادث الثورة ، فقد ذكر كيف نشأ وتربى ، وانخراطه فى سلك الجندية ، وكيف وصل إلى صفوف الضباط ، ثم يتدرج فى الحديث عن المناصب التى تولاها فى خلال خدمته ، ثم تحدث عن الحوادث قبل الاحتلال البريطانى لمصر من حادثة قصر النيل إلى مظاهرة عابدين ، ثم الظروف السياسية فى مصر قبل التدخل العسكرى البريطانى ، ولم يتعرض لحوادث الثورة العرابية والمعارك العسكرية التى تمت بين الجيش المصرى والجيش البريطانى ، ثم تكلم عن نفيه إلى جزيرة سيلان ، ومحاولته للعفو عنه ، والعودة إلى أرض الوطن بعد غربة طويلة عن أرض مصر – ويجب هنا أن نذكر أن فترة نفيه كانت طويلة لمدة تسعة عشر عامًا ، وأنها أثرت على معنويات

أحمد عرابى وأصبح شيخًا كبيرًا يود أن يرجع إلى وطنه الذى خدمه وأخلص له ، كما أن هذه المذكرات كتبت بعد عودته من المنفى فى ظل حكم أسرة محمد على . . .

عميد أ . ح/ محمد فريد السيد حجاج

المذكرات

نشأتى الأولى

ولدت فى ٧ صفر سنة ١٢٥٧ هـ من أبوين شريفين من ذرية العارف بالله السيد صالح البلاسى البطائحى ، ومقامه الشريف بقرية فاقوس بمديرية الشرقة ، وهو أول من قدم إلى بلاد مصر من بلاد البطائح بالعراق فى أواسط القرن السابع للهجرة ، وهو من ذرية الإمام على الرضا بن الإمام موسى الكاظم من سلالة الإمام الحسين بن على بن أبى طالب وابن فاطمة الزهراء البتول بنت محمد صلّى الله عليه وعلى آله وسلم . اسم والدى محمد عرابى بن السيد محمد وفى بن السيد محمد غنيم بن السيد إبراهيم بن السيد عبد الله إلى آخر السلسلة الشريفة ، واسم والدتى فاطمة بنت السيد سليمان بن السيد زيد تجتمع مع والدى فى جدى الثالث عشر المسمى إبراهيم مقلد رحمه الله تعالى . ومولدى كان بقرية هرية رزنة بمديرية الشرقية على ميلين من شرقى بندر الزقازيق ، وهى بلدة قديمة جدًّا من ضواحيها مدينة بوباسطة كرسى مملكة العائلة ٢٢ فى زمن شيشاق بن نمرود التى يقال لها الآن (تل بسطة) وعشيرتى فيها نحو ربع تعدادها ، وكان والدى رحمه الله تعالى شيخًا عليها إلى أن

توفى فى شهر شعبان سنة ١٢٦٥ هـ فى زمن الهواء الأصفر عن ثلاث نسوة وأربعة أولاد وست بنات ، وكنت ثانى أولاده الذكور وسنى ٨ سنوات ، وترك لنا ٧٤ فدانًا ، ولو شاء لاستكثر من الأطيان الزراعية ، ولكنه رحمه الله تعالى يراعى صالح أبناء عمومته حيث أن أطيان القرية كغيرها ، فكانت مكلفة بأسماء المشايخ يوزعونها بمعرفتهم على أهل بلادهم بحسب الاحتياج إلى عهد المغفور له عباس باشا الأول ، وهو أول من كلف الأطيان بأسماء الأفراد وألزمهم بدفع خراجها ، ومازاد عنهم يترك للميرى ويسمونه المتروك .

وكان والدى عليه سحائب الرحمة والرضوان عالمًا فاضلاً تقيًّا أقام بالجامع الأزهر ٢٠ سنة ، تلقى فيها الفقه والحديث والتفسير وبرع فى كثير من العلوم النقلية والعقلية على كثير من المشايخ كشيخ الإسلام القويسنى رحمه الله تعالى وغيره من العلماء الأطهار .

ولما آلت إليه وظيفة الشياخة على عشيرته جدد عمارة المسجد المنسوب إلى عشيرته بالقرية المذكورة ، وفيه أربعة أعمدة من الحجر الصوان القديم ومنبر من الخشب عجيب الصنعة ، وأنشأ بجوار المسجد مكتبًا لتعليم القرآن الشريف وجعل له فقيهًا صالحًا عالمًا يسمى الشيخ نجم من سلالة السيد العزازى ، وألزم الأهالى بتعليم أولادهم . وكان رحمه الله

يشدد عليهم فى ذلك حتى صار نحو نصف تعداد الناحية المذكورة يحسنون القراءة والكتابة وكل منهم يعرف واجباته الدينية ، ومنهم نحو مائة وخمسين فقيهًا عالمًا ، ومنهم المرحوم الشيخ محمد حسين الهراوى من علماء الجامع الأزهر ، والشيخ العارف بالله إبراهيم المصيلحي نفع الله به المسلمين ، فلما بلغ سنى ٤ سنوات أرسلنى والدى إلى المكتب المذكور . فأقمت فيه ثلاثة أعوام ختمت فيها القرآن وعمرى إذ ذاك ثمانى سنين وبضعة شهور ، فلما توفى والدى كفلنى أخى الأكبر المرحوم السيد محمد عرابى الذى توفى فى ٢٥ شعبان سنة ١٣١٨ رحمه الله تعالى ، وأخذت عنه مبادئ علم الحساب وتحسين الخط مع ملاحظة بعض أشغال الزراعة ثم بدالى المجاورة بالأزهر حين بلغت اثنى عشر عامًا فكنت أجود القرآن على أقاربى نهارًا وأتوجه إلى بيت عمى ليلا ، وتلقيت شيئًا قليلا من الفقه والنحو ، وبعد سنتين رجعت إلى بلدى .

سعيد باشا :

وكان المرحوم سعيد باشا عليه سحائب الرحمة والرضوان.قد تولى الحكومة الخديوية ١٥ شوال سنة ١٢٧٠ ، وأمر بدخول أولاد مشايخ البلاد وأقاربهم فى العسكرية فدخلت من ضمنهم ، وانتظمت فى سلك الأورطة السعيدية المصرية بقناطر فم البحر فى شهر ربيع أول عام

١٢٧١ ، وجعلت فيها وكيل بلوك أمين ، من أول يوم صار انتظامى فى سلك العسكرية بعد امتحانى بحضور إبراهيم بك أمير الآلاى وحسن أفندى الألفى حكيم الآلاى ، ثم ترقيت إلى رتبة بلوك أمين فى شهر رجب من السنة المذكورة بعد إعادة الامتحان إلى الطالبين ولذلك من غير واسطة أحد غير الجد والاجتهاد .

وبعد عام نظرت فرأيت بعض الباشجاويشية المصريين ترقى إلى رتبة الملازم الثانى ، وعلمت أن البلوك أمين لا يترقى إلّا إلى رتبة الصول قول أغاسى وفيها يفنى عمره . فجزعت من ذلك وذهبت إلى أمير الآلاى وطلبت منه ترتيبى فى رتبة جاويش فى أورطة كانت أفرزت لإرسالها إلى مدينة المنصورة فسألنى الميرالاى المذكور عن سبب ذلك حيث أن راتب الجاويش أقل ١٠ غروش من راتب البلوك أمين ، وإن كانت الرتبتان متساويتين ، فأفصحت له عما خالج فكرى وإنى إذا صرت جاويشاً سهل علىّ الحصول على رتبة الباشجاويش ثم الانتقال إلى رتبة ضابط . فعجب لذلك الخاطر وأمر فى الحال بجعلى جاويشاً فمكثت فى هذه الرتبة سنتين ، وفى تلك المدة حبب إلىّ الاعتزال عن الناس والاشتغال بدراسة القوانين العسكرية مع التدبر فى معانيها حتى أتقنت قانون الداخلية وقوانين تعليم النفر والبلوك والأورطة ، وبعض فصول من تعليم الألاى .

وفى أوائل عام ١٢٧٤ أمر سعادة راتب باشا بجمع الصف ضباط

فاجتمعنا حوله فى فسحة قصر النيل بقيادة المرحوم سعيد باشا وقال :

إن أفندينا بلغه أنكم تقولون فى ما بينكم كيف يصير ترقى الصف ضباط الجدد وتأخير من هو أقدم منهم فى الرتب ، وأنه أمر أن لا يترقى أحد بعد الآن إلّا بعد الامتحان علمًا وعملا ، فمن فاق أقرانه فى الامتحان ترقى إلى الرتبة التى يستحقها ولو لم يلبث فى رتبته الأولى غير شهر واحد ، فمن أراد منكم الامتحان فليتقدم إلى الأمام .

فعند ذلك تقدمت أمام سعادته وأحجم الآخرون خوفا وهلعًا ظنًّا منهم أنه يريد معاقبة من يتظاهر بذلك . .

ولما كرر عليهم الطلب خرج آخر وآخر حتى بلغ عدد الراغبين فى الامتحان نحو ٣٠ شخصًا ، فصار امتحانهم بحضوره تحت رئاسة المرحوم إسماعيل باشا الفريق فكنت أول فائز فى الامتحان .

ثم صار جمع الضباط والصف ضباط بمعرفة سعادة راتب باشا الذى كان وقتئذ أميرآلاى وصار طلبى أمام الجميع ووضع فى صدرى نيشان الباشجاويش وأعلن ترقيتى إلى هذه الرتبة .

وبعد عام ، أى فى أول عام ١٢٧٥ ، صار امتحان الباشجاويشية بحضور سعادة راتب باشا أيضًا والمرحوم إسماعيل باشا الفريق فكنت الفائز الأول وترقيت إلى رتبة الملازم ثانى التى كنت أدأب فى الحصول عليها منذ البدء .

ثم بعد سبعة أشهر صار امتحان الضباط فى القصر العالى فكنت أول فائز فيه ، وكُتب اسمى فى أول الامتحان ، ولما عرض الجدول على ساكن الجنان سعيد باشا أمر بإعادة امتحانى وانتدب لذلك المرحوم سليمان باشا الفرنساوى رئيس رجال العسكرية .

فطُلبت ثانيًا إلى الامتحان وكان يومًا مشهودًا ، وبعد الامتحان التمس سليمان باشا المشار إليه خروج الخديوى المرحوم إلى ميدان الإمام الشافعى رضى الله عنه ، وهناك يصير امتحانى فى الميدان بأورطة من العساكر بحضرته الخديوية .

فسأله الخديوى عما يقصده بذلك فقال إنه مستحق لرتبة الميرالاى لأن الذين ترقوا الى هذه الرتبة من المدارس الحربية لم يقرروا فى أجوبتهم مثله .

فقال الخديوى رحمه الله تعالى : لا يمكن ذلك .

فقال له يحسن إليه على الأقل برتبة بكباشى فأبى عليه ذلك وقال يلزم أن يتدرج فى كل رتبة ليعرف واجباتها وأحسن إلىَّ برتبة ملازم أول ، وأمر باعتبار جدول هذا الامتحان وأن يكون الترقى على مقتضاه بدون تجديد امتحان لمدة مجهولة . وقبل مضى شهرين أحسن علىَّ برتبة يوزباشى والتحقت بمعيته .

وفى أوائل سنة ١٢٧٦ ترقيت إلى رتبة صاغقول أغاسى فى بنى سويف ، وبعد العودة إلى مصر صان ختان المرحوم الطيب الذكر طوسن باشا النجل الوحيد للمرحوم سعيد باشا فأولم المرحوم الخديوى وليمة شائقة دُعى إليها جميع أعضاء العائلة الخديوية فى قبة عظيمة حضرها جميع الضباط والذوات ، وغيرهم من الأجانب ، وبعد الطعام انتصب الخديوى رحمه الله تعالى قائمًا وقال خطبة ارتجالية ذكر فيها « إن من أمعن النظر فى تاريخ بلادنا هذه وتوالى حوادثها المحزنة لا يسعه غير الأسف والتعجب كيف توالت الأمم الأجنبية على أهلها وهم يظلمون سكانها كالكلدانيين والفرس قبل الإسلام والترك والأكراد والشركس وغيرهم بعد الإسلام وكلهم يفسدون ولا يصلحون وإنى عزمت على تثقيف أبناء البلاد وتهذيبهم وترقيتهم حتى تكون حكومة البلاد بأيديهم بصفة كونى مصريًّا منهم وبالله الاستعانة » .

فوقع هذا الخطاب على من حضر من غير المصريين وقوع الصواعق وتهلل وجوه المصريين وشكروا ودعوا وانقضت الحفلة .

ثم فى آخر سنة ١٢٧٦ ترقيت إلى رتبة بكباشى ، وفى أوائل عام ١٢٧٧ أحسن إلىَّ برتبة القائمقام الرفيعة كما أحسن بها على السيد محمد باشا النادى ، وعلى المرحوم راشد باشا راقب ، الذى استشهد بحرب الحبشة فى عام ١٢٩٣ ، وعلى المرحوم سليم باشا رفقى الذى صار ناظرًا

للجهادية قبل الثورة الوطنية . فكنا أربعة قائمقامات ، اثنين مصريين واثنين شركسيين وكل منا استلم قيادة ألاى بيادة .

وفى السنة المذكورة سافرت بمعية المرحوم سعيد باشا إلى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم السلام برتبة القائمقام .

وفى عام ١٢٧٨ رأى سعيد باشا أن الحكومة سقطت فى دين يبلغ مقداره ٦ ملايين جنيه مصرى ، وذلك يساوى إيراد الحكومة فى ذلك الوقت سنة كاملة تقريبًا . وكان ذلك المبلغ ثمن أسلحة ومهمات حربية وملبوسات وذخائر عسكرية موصى عليها فى معامل أوربا وردت بعد وفاته رحمه الله تعالى . فأمر برفت جميع الآلايات وأبقى أورطة واحدة كان فيها يوزباشى سعادة مصطفى فهمى باشا رئيس النظار الآن ، وعلى فهمى باشا الذى نفى معنا إلى سيلان . وأمر باستيداع الضباط بالمحافظات والمديريات على حسب رغبتهم ومن له بلد يتوجه إلى بلده ويصرف لهم نصف مرتباتهم فى استيداعهم وأمر أن تضاف مرتباتهم على الأطيان مؤقتًا ريثما يتم تسديدالدين . فخص الفدان الواحد ٥٠ فضة أى غرش واحد وربع ، وقد حصل ذلك فعلا ، ثم صار بيع الخيول ومأكولات العساكر ومفروشاتها وكانت من البوسطى وغيرها وكذا الفضيات الموجودة فى خزائن الأمتعة والمسافر خانات ، وكذا الفوريقات الموجودة فى جميع القطر المصرى ، والأطيان المتروكة فى كل المديريات ،

كل ذلك رجاء تسديد الدَّين .

وفى أوائل عام ١٢٧٩ سافر المرحوم سعيد باشا إلى أوربا لمعالجة نفسه من داء السرطان ، وكان بمعيته المرحوم محمد على باشا الحكيم المصرى الذى استشهد فى حرب الحبشة عام ١٢٩٣ فصدر أمره الكريم إلى قائمقام خديوى فخامة إسماعيل باشا الخديوى الأسبق بطلب جميع الضباط المصريين من بلادهم وإقامتهم فى قصر النيل ومداومتهم على التدريس فى القوانين العسكرية يقول فيه :

« إن الضباط الوطنيين المترقين من تحت السلاح قد اشتغلوا بملازمة نسائهم وتركوا دروسهم ، ولو تركناهم على هذا الحال الذى لا يؤول عليهم منه إلّا الوبال لفقدوا العافية والنظر ، وصاروا عبرة لمن يعتبر » .

« وبما أننا نحن الذين ربيناهم ورقيناهم وأظهرناهم فلا يصح لنا تركهم فى هذا الحال الذى ذكرناه ، فقد اقتضت إرادتنا جمعهم من بلادهم ، وعدم تمكينهم من نسائهم حتى ولا بالنظر إليهن بالعين . والتشديد عليهم بمداومة التدريس ليلا ونهارًا فى قصر النيل » .

وبناء على هذه الإرادة صار اجتماعنا فى قصر النيل .

وفى ربيع الأول انتُدبت لفرز الصف ضباط فى الوجه القبلى وتعين معى حكيمًا للفرز المرحوم سالم باشا سالم الحكيم ، وكان برتبة قائمقام أيضًا .

وفى ٢٧ رجب من تلك السنة توفى المرحوم سعيد باشا ودُفن فى الإسكندرية بالمدفن المجاور لمسجد النبى دانيال عليه السلام بعد عودته من أوربا ، وجلس على الأريكة الخديوية ابن أخيه إسماعيل باشا الخديو الأسبق ، وصار ترتيب الآلايات ، فكان ترتيبى قائمقام ٦ جى آلاى بيادة . وأما سعادة نادى باشا فتعين على آلاى جميع ضباطه من المصريين المترقين فى زمن سعيد باشا وأرسل إلى السودان .

وحاصل الأمر أنى دخلت العسكرية نفرًا بسيطا فى أوائل سنة ١٢٧١ وبلغت رتبة القائمقام فى أواخر عام ١٢٧٧ بجدى واجتهادى وسهر الليل والنهار على حد قول القائل : « ومن طلب العلا سهر الليالى » .

ونجح كثير من تلامذتى نجاحًا تامًّا حتى كانوا فى مقدمة الضباط فى الامتحانات العمومية .

وكان السبب فى هذا الاجتهاد الغريب الذى فاقوا به المتخرجين من المدارس الحربية ، وكان أغلبهم أميين ، رغبة سعيد باشا فى تقدم أبناء الوطن ومساواتهم لغيرهم كما ذكر ، ومحبته لهم ، وانعطافه إليهم ، ومعاملته للجميع بالعدل والمساواة مع تفقد أحوالهم ومراعاة سيرهم وحسن سلوكهم كأنهم أولاده ، وكفى بالأمر الصادر منه وهو فى بلاد أوربا فى حقهم المذكور آنفًا برهانًا صادقًا على حسن معاملتهم للوطنيين كأنه كان وصية منه عليهم لمن يخلفه . وهذا هو الذى أوغر علينا صدور

إخواننا من الترك والشركس وغيرهم .

ولقد قال لى مرة رحمه الله تعالى وأنا برتبة قائمام : إن جميع الناس عادونى ، حتى أهلى رجالا ونساء بسبب مساواتكم بغيركم فحققوا أملى فيكم ، فأجبته : « ولكن الله سبحانه وتعالى يرضى عنك والأمة المصرية ترضى عنك لمراعاتك للحق والإنصاف » هذا وبسبب عدله وقناعته أثرت البلاد فى زمنه وأخصبت الأرض ، وانتعشت الأمة حتى صار الرجل المزارع الذى يعمل بيده يحصل له فوق عشرين جنيهًا فى السنة ، وهذا ما حفظ مصر من الإفلاس فى مدة خلفه الذى بلغ دين الحكومة فى زمنه مائة ألف ألف وألف ألف جنيه كما هو مدون فى بطون الدفاتر .

نشأتى الثانية

ولما تولى الخديوية المرحوم إسماعيل باشا وأمر بإنشاء ٦ آلايات بيادة ، كنت « قائمقامًا » فى الآلاى السادس ، وكان المرحوم خسرو باشا أميرالايًا على الآلاى الثانى ثم ترقى إلى رتبة لواء باشا ، وكان رحمه الله متعصبًا لأبناء جنسه تعصبًا أعمى وترتب قومندانا على الألاى ٥و٦ ولما وجدنى وطنيًا قحًا عظم عليه وجودى فى الآلاى ، وسعى فى رفتى من الآلاى لأجل إخلاء محلى لترقية أحد أبناء المماليك مصطفى أفندى سليم بن سليم بك المشهور بالحجازى .

ولأجل هذه الغاية صار يترقب الفرص للإيقاع بى إلى أن صدر أمر الجهادية بامتحان الضباط لأجل استكمال النقصان ، وبعد أن صار الامتحان ، وتحررت العرائض للمستحقين وختم عليها من أرباب الامتحان ، وكنت من ضمن أعضاء مجلس الامتحان تحت رئاسة الباشا المذكور ، أرسل لى عريضة أحد الملازمين اسمه سيد أحمد أفندى وطلب أخذ ختمى من عريضته والختم على عريضة ضابط آخر من أورطة مصطفى أفندى سليم البكباشى ، لكونه دائمًا يباشر خدمة منزل البكباشى

المذكور . فشق على هذا الأمر وتوجهت إلى مركز اللواء باشا وأخبرته بأن يعفينى من الختم على عريضة من لا يستحق فقال لابد من الختم لأجل خاطر البكباشى المذكور . فقلت إن هذا ظلم لا أفعله ، وإذا كنت تراعى خاطر البكباشى فى الظلم فأولى لك أن تراعى رئيسه فى العدل . وذكرته بعاقبة هذا الأمر إذا تشكى المظلوم إلى ديوان الجهادية وطلب امتحانه مع الآخر كما حصل مثل ذلك فى زمن المرحوم سعيد باشا ، وصار عزل جميع أعضاء مجلس الامتحان مع رئيسهم بسبب ظلم نفر مستحق رتبة أونباشى وهى أدنى رتب الصف ضباط .

ثم ذكرته بعاقبة الظلم غدًا بين يدى العزيز الجبار .

فحنق لذلك حنقًا شديدًا وذهب إلى ناظر الجهادية المرحوم إسماعيل باشا سليم ، وأخبره أنى لا أطيع له أمرًا ولا أعبأ بأوامر ديوان الجهادية . وناظر الجهادية عرض للخديوى الأسبق بذلك ثم صدر الأمر برفتى من الجهادية بالقول إنى قوى الرأس شرس الأخلاق (وما بى والله من شراسة ، ولكن جعلنى الله سبحانه على حب العدل والإنصاف وكره الظلم والاعتساف) فترتب على ذلك رفتى من الخدمة وحرمانى من المائتى « فدان » التى صدر أمر الخديوى بالإحسان بها على كل من القائمقامات الجهادية عقب مناورة عسكرية حضرها الخديوى ، وكنت من ضمن من حضرها ، وكان إصدار إرادة سنية للمديريات بوجه يجرى بتسليم تلك

الأطيان إلى المنعم بها عليهم .

فصدرت إرادة سنية ثانية بتوقيف التسليم فيما يخصني وقد حصل ولكن الله ليس بغافل عما يعمل الظالمون فانتقم بعدله ممن ظلم من غير إمهال وذلك أنه صدر أمر الخديوى فى الأسبوع الذى رفت به إلغاء الألاى ٥ و٦ أى اللواء الثالث ، وأرسل خسرو باشا إلى السودان وأصيب حسين باشا الطوبجى بالفالج ، ومحمد بك أمين القبرصلى بالفالج أيضًا حتى ماتا ، وأمين بك رئيس لما ألم بديوان الجهادية انتحر بعد تكبيله فى الحديد وإرساله إلى السودان ، وهكذا كل من اشترك فى هذه المظلمة أصيب بقارعة عظيمة .

وأما مصطفى سليم المذكور فقد رفت أيضًا وأقام فى بيته مرفوتًا نحو عشر سنين حتى أذله الله . وأما إسماعيل باشا ناظر الجهادية فإنه مات فى حرب كريد ، ولكن ليس شهيدًا ، بل مات بسبب أكلة من فريك القمح فانعقدت أمعاؤه وقضى نحبه ، وجىء بجثته إلى مصر ودفن فيها سامحه الله تعالى .

وفى شهر ربيع أول عام ١٢٨٣ عرضت للخديوى بواقعة الحال والتمست إنصافه فصدر أمره فى ١٦ رمضان عام ١٢٨٣ نمرة ١٦ عرض وهاك صورته :

« ديوان جهادية ناظرى سعادتلو باشا حضر تلرى . ٦ جى بيادة

سابق قائمقام أحمد عرابى بكك أشبو عرضحال منظورم أولدى خطاسنى عفوا يتمش اولد يغمدن حاله مناسب خدمة ظهورنده استخدام ايتدير لمسى حقنده ايجابتى اجراء ايلمكز ايجون اشبو أمرم أصدار قلندى » .

وحيث إن ناظر الجهادية المذكور كان مساعداً لخسرو باشا كرهت الخدمة فى العسكرية وطلبت إحالتى على ديوان المالية .

وفى التاريخ المذكور صار تعيينى محافظًا على بحر مويس وجزء من البحر الأعظم بمديرية الشرقية زمن فيضان النيل ، بمعرفة المرحوم إسماعيل باشا صديق .

وبعد انقضاء زمن النيل من غير أن يحدث أدنى ضرر فى مديرية الشرقية كما حصل من الغرق بقطع نادر وقطع بطرة وغيرهما ترتبت مأمورًا لتشهيل بناء قناطر فم الإسماعيلية بقصر النيل وتشهيل قطع الأحجار فى معامل طرة والدقيقة بالعباسية والجبل الأحمر بالبساتين ، وشحنتها بالمراكب إلى القناطر المذكورة . وإلى سد فم الرياح فى شبرا ، وإلى القناطر الخيرية ، وإلى جميع مديريات الوجه البحرى ، وتشهيل مراكب النقل وتفريغها بقناطر الإسماعيلية وسد الرياح فى شبرا ، وكان عملاً شاقًا جدًا من غير مراعاة الحكومة لأسباب التسهيل . فكنت أنتقل فى كل يوم إلى المحلات المذكورة على ظهر فرسى أو حمارى حتى جاءت سنة ١٢٨٥ فانتدبت لتشهيل بناء كبرى قشيشة العظيم بمديرية بنى سويف

وكبرى الرقة بمديرية الجيزة وكبرى أبو راضى على سكة حديد الفيوم ، وبعد تمام تلك الأشغال كوفئ غيرى بخمسة آلاف جنيه مصرى . . ثم أحيل على عهدتى تمديد سكة حديد المنيا إلى محطة ملوى ، وبعد نهوها تصادف جعل المرحوم قاسم فتحى ناظر الجهادية ، وكان يعرف قدر أعمالى واقتدارى فطلبنى وكلفنى الانتظام فى سلك العسكرية ثانية .

فأجبته إلى ذلك وترتبت قائمقامًا فى ٣ جى ألاى بيادة فى أوائل سنة ١٢٨٧ ، وفى سنة ١٢٨٨ انتقلت إلى رئاسة ٢ جى ألاى بيادة ولكن برتبة القائمقام ، وفى أواخر سنة ١٢٩٠ توجهت بالآلاى المذكور برًّا إلى رشيد للإقامة فيها ، وفى ٢٤ شعبان سنة ١٢٩٢ انتدبت إلى ترتيب عساكر محافظين للقلاع الحجازية من أهالى تلك البلاد وإرسال العساكر النظامية المصرية إلى مصر فتوجهت إليها وحيدًا فريدًا على مصاريف نفسى فى أول يوم من شهر رمضان حتى وصلت إلى قلعة نخل ، ورتبت لها العساكر اللازمة للمحافظة عليها ، وجعلت فيها مكتبًا لتعليم أبنائهم القراءة والكتابة ، ثم ذهبت إلى قلاع العقبة والمويلح والوجه وأجريت فيها كما أجريت فى قلعة نخل ، وأرسلت العساكر النظامية إلى مصر ، ثم عدت قافلا بحرًا إلى بندر القصير ، ثم برًّا إلى قنا ، وبحرًا إلى أسيوط ، وبرًّا إلى مصر .

ولما عرضت انتهاء مهمتى على ناظر الجهادية فخامة صاحب الدولة

حسين باشا كامل قال لى إنى لاعتمادى عليك ووثوقى بك قد عينتك مأمورًا للحملة الحبشية فاستعد لذلك بعد عشرة أيام فانتخبت من أعتمد عليهم من الضباط والكتبة ، وسافرنا جميعًا إلى مصوع ، وبعد انتهاء تلك الحرب المشؤومة عدت إلى مصر ، فأمرنى دولة المشار إليه أن أعود إلى السويس لتشهيل المحضرين من مصوع وزيلع ، وإرسال الذخائر اللازمة لتلك الجهات بدل المرحوم على غالب باشا ، حيث إنه تعين مديرًا لمديرية الدقهلية ، فذهبت إليها .

وبعد انتهاء تلك المأمورية أيضًا عدت إلى الآلاى الذى بعهدتى برشيد ، وفى أوائل سنة ١٢٩٦ صدر لنا الأمر بحضور الآلايات الموجودة برشيد إلى مدينة القاهرة ، وتسليم الأسلحة والمهمات ، وإرسال العساكر إلى بلادهم فحضرنا ، وكنا ثلاثة العساكر آلايات ، وسلمنا المهمات فى يوم وصولنا ، وفى اليوم الثانى صباحًا ذهبت إلى منزل سعادة محمد نادى باشا وكان أمير آلاي أحد الآلايات المحضرة من رشيد حين ذاك فما نشعر إلّا وأحد الضباط اسمه أحمد أفندى نجم ، حضر وأخبرنا أن تلامذة الحربية وبعض الضباط أحاطوا بالمالية فجاءت العساكر من ١ جى آلاى وضربت عليهم بالسلاح ، فاندهشنا لهذا الخبر المريع ، وأرسلنا غيره من الضباط ليستكشف الأمر ويأتينا بالحقيقة ، فذهب وعاد وأخبرنا بما صار ، وبعد يومين صار طلبى ، وطلب نادى باشا بطلب سر تشريفاتى

خديو ، سعادة عبد القادر باشا حلمى ، فذهبنا إليه فى بيته فأخبرنا أن الخديو بلغه أنكماو على بك الروبى قد أغريتم التلامذة والضباط على حصر المالية ، وأنه سيجرى تحقيق ذلك ، فإن ثبت هذا عليكم صار مجازاتكم بأشد الجزاء .

وصار يهددنا تارة ويعدنا بالسلامة تارة أخرى ، فأجبناه بقولنا « يا سبحان الله ، إننا حضرنا أمس من رشيد وكنا مشغولين بتسليم الأسلحة والمهمات بمخازن العسكرية ، وصرف العساكر إلى بلادهم ، فكيف يتصور أننا نغرى تلامذة الحربية والضباط ونحن لسنا موجودين بالقاهرة ولا كان أحد من ضباط عساكرنا موجودًا فى هذه الحركة أصلا ، على أن هذا العمل الخارج عن حد التعقل يلزم تدبيره وترتيبه قبل إجراءاته بمده . « فضحك » لأنه يعلم أن تلك الحركة كانت بإيعاز مقام عال وعمل جاهين باشا جنج لأجل التخلص من نظارة ويلسن المختلطة ، وأيضًا صار طلب المرحوم على بك الروبى بطرف مأمور الضبطية محمود سامى باشا البارودى وبلغه تلك التهديدات بعينها والافتراءات الظاهرة فتنصل منها .

وبعد ذلك صار تشكيل مجلس عسكرى فوق العادة تحت رئاسة رئيس أركان الحرب أسطون باشا الأمريكى ، وعضوية سعادة أفلاطون باشا ، والمرحوم مرعشلى باشا ، وجميعهم يعرفون الحقيقة كما يعرفون

آباءهم ولكن المسألة خرجت عن مركزها المعين .

ثم بعد ذلك صار طلب الضباط والمتهمين من رتبة بكباشى فما فوقها بسراى عابدين ، وقام الخديوى يطيب خواطرنا ويوعدنا بخير ولكن :

أمور يضحك السفهاء منها ويبكى من عواقبها اللبيب

هكذا قلت لسعادة محمد باشا النادى ، والمرحوم على باشا الروبى المتهمين معى فى مسألة الإحاطة بديوان المالية .

وفى ذلك الاجتماع صار جعلنا نحن الثلاثة من ضمن الياوران الذين بمعيته .

– عجبًا وألف عجب – ولكن بعد أسبوع انخلع على الروبى من العسكرية وتعين رئيسًا لمجلس المنصورة وأبعد نادى باشا بألايه الجديد إلى الإسكندرية ، ثم صار طلبى إلى ديوان المالية فذهبت إلى ناظرها المرحوم راغب باشا فأخبرنى أن أهالى جرجا وأسيوط ومديريات الوجه القبلى قد انتخبونى أمينًا من طرفهم فى تسليم ٧٠٠ ألف أردب قمح شعير وفول إلى بنك قطاوى وبيحة وأجيون باسكندرية ، لسداد ما عليهم من الديون – والله يعلم أن الأمر غير ذلك ، وأنا أعلم أيضًا . . ومع ذلك توجهت إلى الإسكندرية وأديت تلك المأمورية التى حقيقتها سلفة نصف مليون بنتو

أخذتها الحكومة لتسديد بعض الأقساط من أرباح الدين المصرى . .

وفى ٧ رجب سنة ١٢٩٦ صار خلع المرحوم إسماعيل باشا وتولية المرحوم توفيق باشا ، وشاهدت الاحتفال بتوديع الخديوى المخلوع حين إنزاله فى السفينة من أسكلة سكة الحديد منفيًّا إلى بلاد إيطاليا ، كما أنزل عمه حليم باشا إلى بلاد القسطنطينية . .

* * *

وعلى هذا انتهت مدة ولاية إسماعيل باشا كما علمت ، ولم أنل منه رتبة ولا نيشانًا ولا اختصنى بجارية من جواريه ، وما أصبت منه خيرًا قط ولا أقسمت على الدفاع عنه ولا خدمت بمعيته أصلا ، ولا انتهرنى أبدًا ، ولا صحت حول سرايه ، ولا قال عنى إن صوتى أكثر قعقعة أو قرقعة من الطبل ، وأقل نفعًا منه .

وقد تحملت مدة ولايته بكل صبر وثبات جأش ومكثت برتبة القائمقام ١٩ سنة وأنا أنظر إلى اليوزباشية والملازمين الذين تحت إدارتى ، وقد صار بعضهم أمير آلاى ، وبعضهم أمير لواء ، وبعضهم أمير الأمراء ، أعنى باشوات وفرقاء ، وانهمرت عليهم سحب الإنعامات والإحسانات فاقتطعوا الإقطاعات الواسعة ، وأخذوا القصور العالية ، وأغدقت عليهم الخيرات وهم يعلمون قوتى واستعدادى .

ولقد اجتهد صاحب الدولة حسين كامل باشا عم الحضرة الفخيمة

الخديوية إذ ذاك فى ترقيتى إلى رتبة أمير آلاى ، ولكن لم يقبل منه ، أخيرًا قال لى : « إنى بذلت ما فى وسعى فى طلب ترقيتك ولكن قيل لى إنك من رجال سعيد باشا » فعجبت لذلك وقلت له إنى من رجال الوطن ، وبلدتى اسمها هرية رزنة بمديرية الشرقية ولست مملوكًا لأحد .

فطيب خاطرى ولا طفنى وقال لى : « لا تفتر همتك وسأواصل السعى فى إنصافك » فشكرت له وخرجت وأنا أشعر بأنى لا أنال خيرًا فى مدة أبيه وكنت أتوسم كل خير فى المرحوم توفيق باشا ، ولكن من اعتمد على غير الله سبحانه وتعالى أخلاه منه ، لأنه سبحانه غيور على عباده المؤمنين .

خاتمة أمرى

ولما تولى المرحوم توفيق باشا مسند الخديوية وحضر إلى الإسكندرية أحسن علىَّ برتبة أمير آلاى على الآلاى الرابع فتوجهت إلى رأس التين وقدمت تشكراتى وامتنانى إلى حضرته الكريمة ، ودعوت له بخير ، ثم جعلت من ضمن ياوران الخديوى ولما صار المرحوم عثمان رفقى باشا الشركسى ناظرًا للجهادية فى وزارة مصطفى رياض باشا واستبدوا بالإدارة ، لايسأل كل من النظار عما يفعل فى إدارته واستخفوا بأمر الخديوى كل الاستخفاف — وخصوصًا عثمان رفقى لجهله وعجبه — خيلت له نفسه أن يمنع ترقية المصريين من العسكر العامل فى الآلايات ، والاكتفاء بما يستخرج من المدارس الحربية ، وصدرت أوامره بذلك .

ثم أردفها بإحالة عبد العال حلمى بك أميرآلاى على ديوان الجهادية ليكون معاونًا ، وكان عمره إذ ذاك أربعين سنة ليس إلّا ، ورتب بدله خورشيد نعمان بك من جنسه على الآلاى المذكور ، وكان سنه فوق الستين ، وهو ضعيف لا يقدر على الحركة العسكرية ، ورفت أحمد بك عبد الغفار قائمقام السوارى وترتيب شاكر بك طمازه من جنسه بدله ،

وهو طاعن فى السن ، ثم ختمت تلك الأوامر وصار قيدها بدفاتر الجهادية .

وكنت لا أعلم بشىء من ذلك أصلا ، وإنما دعيت إلى وليمة وسماع تلاوة القرآن الشريف بمنزل المرحوم نجم الدين باشا لمناسبة عودته من أداء فريضة الحج الشريف ، وكان ذلك ليلة ٤ صفر سنة ١٢٩٨ ، ولما وصلت إلى منزل الداعى وجدته غاصًّا بالذوات العسكرية وغيرهم ، فجلست بجوار المرحوم نجيب بك وهو رجل كردى الأصل ، وبجانبه المرحوم إسماعيل كامل باشا الفريق ، وهو شركسى الأصل ، ولكنه يتظاهر بحب العدل والإنصاف ، فأخبره نجيب بك بما صار ، وأنه نصح ناظر الجهادية بالإعراض عن هذا الإجحاف فلم يصغ لقوله ، ولهذا فهو ساخط ومضطرب .

ثم أوعز إليه أن يخبرنى بما سمع منه ، فأخبرنى نجيب بك بحقيقة الحال همسًا فى أذنى ، فقلت لإسماعيل باشا كامل :

« أحق هذا ؟ » فقال « نعم وأعطيت الأوامر إلى الكتبة للإجراء على مقتضاها » ، وبعد تناول طعام المأدبة حضر إلىَّ أحد الضباط وأخبرنى بأن كثيرًا من الضباط ينتظروننى بمنزلى وفيهم عبد العال بك حلمى وعلى بك فهمى .

فأسرعت وهم فى هياج عظيم وقد بلغهم صدور أوامر ناظر الجهادية

قبل إرسالها إليهم ، فلما رأونى أخبرونى بما سمعته من المرحوم إسماعيل باشا كامل ، فقلت لهم « قد سمعت من غيركم فماذا تريدون » فقالوا « إنه ليس ذلك فقط بل إنه قد كثر اجتماع الشراكسة بمنزل خسرو باشا الفريق صغيرًا وكبيراً وهم يتذاكرون فى تاريخ دولة المماليك فى كل ليلة بحضور رفقى باشا ، ويلعنون حزبك ويقولون قد حان الوقت لرد بضاعتنا ، وإنهم لا يغلبون من قلة وظنوا أنهم قادرون على استخلاص مصر وامتلاكها كما فعل أولئك المماليك » : وقد تحققوا ذلك ممن يوثق بخبره .

فقلت لهم « وماذا تريدون إذًا ؟ » فقالوا إنما جئناك لأخذ رأيك فيما دهمنا من الخطب العظيم »

فقلت لهم « أرى أن تطيبوا نفوسكم وتهدِّئوا روعكم ، وتعتمدوا على رؤسائكم ، وتفوضوا لهم النظر فى مصالحكم ، وهم ينتخبون لهم رئيسًا منهم يثقون به كل الوثوق ، يطيعون أمره ويحفظونه بمعاضدتكم » .

فقالوا كلهم : « وقد فوضنا إليك هذا الأمر وليس فينا من هو أحق به وأقدر عليه منك » . فقلت لهم « لا . انظروا غيرى وأنا أسمع له وأطيع وأنصح له جهدى » . فقالوا « لا نبغى غيرك ولا نثق إلا بك » فقلت : « ارجعوا لأنفسكم فإن هذا أمر عصيب لا يسع الحكومة إلا قتل من يقوم به ويدعو إليه » .

فقالوا : « نحن نفديك ونفدى الوطن بأرواحنا » .

فقلت لهم : « أقسموا لى بذلك » فأقسموا .

وفى الحال كتبت عريضة إلى دولة رئيس النظار رياض باشا مقتضاها :

أولاً : الشكوى من تعصب عثمان رفقى لجنسه ، والإجحاف بحقوق الوطنيين ، والتمست فيها تشكيل مجلس نواب من نبهاء الأمة المصرية تنفيذًا للأمر الخديوى الصادر إبان توليته .

ثانيًا : إبلاغ الجيش إلى ثمانية عشر ألفًا تطبيقًا لمنطوق الفرمان السلطانى .

ثالثًا : تعديل القوانين العسكرية بحيث تكون كافلة للمساواة بين جميع أصناف الموظفين ، بصرف النظر عن الأجناس والأديان والمذاهب .

رابعًا : تعيين ناظر الجهادية من أبناء البلاد على حسب القوانين العسكرية التى بأيدينا . ثم تلوت العريضة هذه على مسامع الجميع فوافقوا كلهم عليها فأمضيتها بإمضائى وختمتها بختمى وختم عليها على بك فهمى أميرألاى الحرس الخديوى ، وعبد العال أمير ألاى السوارى .

ولما تم ذلك صار ترتيب ما يلزم لحفظ الذات الخديوية وحفظ أعضاء العائلة الخديوية ، وحفظ الوزراء والأمراء الوطنيين إذا حدث

أى حادث من الضباط الشراكسة الطامعين فى التغلّب على البلاد ، مع ترتيب اللازم لحفظ البيوت المالية وبيوت التجار من الأجانب والوطنيين من مطامع الرعاع ، وحفظنا أيضًا من بطش الحكومة إذا أرادت الإيقاع بنا أو رفض الاجتماع على ذلك .

وما دعانا إلى مجلس نواب للأمة ينظر فى صوالحها ومصالحها إلّا ما حل بالمرحوم إسماعيل صديق باشا الحائز لرتبة المشيرية التى من لوازمها حفظ صاحبها ولو باستعمال السلاح فى عهد الخديوى الأسبق إسماعيل باشا ، بسبب كلمة حق قالها ، وما حل بحضرة السيد حسن موسى العقاد بسبب كلمة عدل أراد بها مساواة الأهالى ، الذين دفعوا للحكومة سبعة عشر مليون ٠٠٠ ، ٠٠٠ ، ١٧ مليونا من الجنيهات المصرية باسم المقابلة و ٠٠٠ ، ٠٠٠ ، ٥ ملايين أخرى باسم السهام ، بالأجانب أصحاب الديون ، وما حصل لكثير من القتل والخنق فى السجون بغير حق ولا تحقيق ، بل بمجرد ظلم وإجحاف واستعلاء على الناس بالقهر والجبروت بما تأباه النفوس الشريفة . وفى ضحوة الغد ذهبت إلى ديوان الداخلية وقدمت العريضة إلى دولة رئيس النظار فقال لنا : « سأنظر فى هذا الأمر وأتكلم مع ناظر الجهادية » وبعد يومين ذهبت إلى بيت الرئيس المذكور ومعى الأميران المذكوران ، فلما تمثلنا بين يديه وسألناه عما تم فى هذا الأمر فقال إن هذا الطلب مهلك ، وهو أشد خطرًا

من العرض الذى قدمه أحمد أفندى فنى الذى أرسل بسببه إلى السودان » (وتحرير الخبر أن أحمد أفندى فنى هذا كان كاتبًا بديوان المالية ، وكان طلب المساواة مع خدمة الديوان المذكور لظلم حاق به فكان جزاؤه إرساله إلى مقبرة الأبرياء من المصريين بالسودان) فأجبته بأننا لم نطلب إلّا حقًّا وعدلا ، وليس فى طلب الحق من خطر ، على أننا نعتبرك أبًا للمصريين فما هذا التعريض ، وما هذا التهديد ؟ فقال : « إنه ليس فى البلاد من هو أهل لمجلس النواب » فقلت له : « عجبًا ، إنك مصرى وباق النظار مصريون ، والخديوى أيضًا مصرى ، أتظن أن مصر ولدتكم ثم أعقمت ؟ لا بل فيها من العلماء والفضلاء والنبهاء والبلغاء وعلى فرض أنه ليس فيها من يليق كما ظننت ، أفلا يمكن إنشاء مجلس يستمد معارفكم ويكون كمدرسة ابتدائية ، وبعد خمسة أعوام يتخرج منها رجال يخدمون الوطن بصائب فكرهم ويعضدون الحكومة فى مشروعاتها الوطنية ؟ فانبهر لذلك وقال لنا : « سننظر بدقة فى طلباتكم هذه » فانصرفت على ذلك .

ولما كان يوم غرة ربيع الأول سنة ١٢٩٨ انعقد مجلس تحت رئاسة الخديوى بعابدين حضره جميع الباشوات المستخدمين والمتقاعدين ، وكلهم من الترك والشراكسة إلا قليلا من الأوربيين وقرروا فيه لزوم توقيف الثلاثة أمراء الآلايات الذين أمضوا على العريضة المتقدمة الذكر

ثم إجراء محاكمتهم فى مجلس مخصوص مختلط من رجال الجهادية .

فقال رئيس النظار رياض باشا : « إنى أرى أنه إذا صار توقيف الميرالايات المذكورين يلزم أيضًا توقيف ناظر الجهادية ، لأنه فى عدم توقيفه مثلهم خطرًا عظيمًا ، وذلك لما رأيته فيهم من الجراءة » فلم يوافق المرحوم الخديوى على ذلك ، وتعهد ناظر الجهادية المذكور بأنه ضامن لأخذنا بسهولة .

وفى الحال دُعى المرحوم أحمد خيرى باشا الشركسى وكان مهردار الحضرة الخديوية ، وصاحب الرأى النافذ ، فحضر وتلا بالمجلس المذكور أمرًا فحواه « أن هؤلاء الثلاثة أمراء آلايات أحمد عرابى ، وعلى فهمى ، وعبد العال حلمى ، مفسدون فى الأرض ، وأنه يقتضى توقيفهم من الخدمة ومحاكمتهم على إفسادهم ، ومجازاتهم بأشد أنواع الجزاء فى مجلس عسكرى فوق العادة تحت رئاسة ناظر الجهادية ، ويكون من أعضائه أسطون باشا رئيس أركان الحرب (وهو أمريكى) وناظر المدارس الحربية أرفى باشا (وهو فرنساوى) » فوقع الخديوى عليه وسلمه إلى ناظر الجهادية عثمان رفقى باشا وانفض المجلس بعد ذلك .

وفى المساء أرسل ناظر الجهادية لكل منا تذكرة يدعونا فيها للحضور إلى ديوان الجهادية بقصر النيل فى غد يوم ٢ شوال سنة ١٢٩٨ لنشهد الاحتفال بزفاف شقيقة الحضرة الخديوية المرحومة جميلة هانم ، وكأن

وقت زفافها لم يحن بعد فتيقنا أنه يريد خدعتنا والبطش بنا ، فالتجأنا إلى جانب الحق سبحانه وتعالى ، وأخذنا حذرنا ثم أعددنا ما يلزم لنجاتنا إذا اقتضت الحال ذلك .

وحين حلول الوقت المعين ذهبنا إلى ديوان الجهادية فوجدناه غاصًّا بجميع الشراكسة من رتبة الفريق إلى رتبة الملازم الثانى ، وجميع شبانهم بأيديهم الطبنجات ذوات ٦ طلقات مملوءة بالخراطيش ، وكلهم فى فرح ومرح ولا فرح هناك ولا زفاف .

فلما حضرنا دعينا للحضور أمام مجلس الهلاك فأجبنا طائعين ، وتلى الأمر الخديوى الآنف ذكره ، ثم أمرنا بتسليم سيوفنا فأطعنا على هذا التسليم وما يعقبه من السجن وهو مخالف للفظ الحاكم بالتوقيف ، ثم تعين بحضرتنا من يستلم أمرة الآلايات وساقونا إلى السجن فى قاعة بقصر النيل ، فمررنا بين صفين من الشراكسة المسلحين ، وبعد إقفال السجن جاء خسرو باشا وكان رجلاً صلفًا جاهلاً فوقف خارج السجن وقال (ايه زنبيل لى هرفلر) يعنى (فلاحين شغالين بالمقاطف) . ولما أقفل علينا باب الغرفة قال على فهمى بك أحدنا : « والله لا نجاة لنا من الموت وأولادنا صغار » وجزع جزعًا شديدًا فأردت تثبيته وقلت له متمثلا بقول الإمام الشافعى رضى الله عنه :

ولرب نازلة يضيق بها الفتى
ذرعًا ، وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها
فرجت وكنت أظنها لا تفرج

فلا وأبيك ما كان إلّا هنيهة حتى جاءت أورطتان من آلاى الحرس الخديوى بقيادة الشهم الهمام محمد أفندى عبيد البكباشى وأحدقوا بديوان الجهادية ، ثم أسرع بعض الضباط والصف ضباط وفتحوا الأبواب وأخرجونا من السجن ، وقد فر ناظر الجهادية الغشوم هاربًا ، وكذا رجال المجلس وغيرهم من المجتمعين .

ولما فرج الله علينا أسرعت إلى العساكر وحذرتهم وأنذرتهم وقلت لهم : « لا تمدوا أيديكم بسوء إلى أحد من الجراكسة ، فإنهم موالينا وإخواننا استأثروا بأنفسهم علينا ونريد الإنصاف والمساواة معهم ليس إلاّ ، ثم نظرت فوجدت بجانبى المرحوم اسماعيل كامل باشا أنفت نفسه أن يفر مع الفارين فأخذت بيده وضممته إلى صدرى أمام العساكر وقلت هذا جركسى كما تعلمون ولكنه أخى حرام علىَّ دمه وماله وعرضه ، وكذلك غيره من الجراكسة » ، فانصرفوا بانتظام على بركة الله ، ثم سرنا جميعًا إلى قشلاق عابدين ، وكانت الأورطة الأولى من

الحرس الخديوى حكمدارية البيكباشى المرحوم أحمد افندى فرج واقفة أمام سراى الخديوية لحفظها منها ، عسى أن يطرأ من الأمور كما أمرت بذلك من قبل أمير آلاى الحرس على فهمى بك .

ولما تم وجود عساكر الآلاى المذكور أمر أمير الآلاى العساكر بحمل أسلحتهم بحركة (سلام دور) وعزفت الموسيقية بالسلام الخديوى ونادوا جميعًا « يعيش الخديوى » ثلاثًا وذلك كان إشارة وإعلانا للقوم بأننا على إخلاصنا للحضرة الخديوية .

ثم إنهم تشاوروا فيما بينهم فقال أسطون باشا الأمريكى : هذا عصيان ظاهر ، والواجب حصر القشلاق المذكور بالطوبجية وألايات البيادة ، ويطلب من هذا الآلاى تسليم الثلاثة أمراء ، فإن أبوا تضرب عليهم المدافع وتمطر عليهم البنادق نارًا حامية حتى يضطروا إلى التسليم .

فاستحسن الجميع ذلك الرأى الأمريكى ، ولكن ابتدره المرحوم إسماعيل كامل باشا المذكور آنفًا وقال : « أنا أعتقد اتفاق جميع أصناف العساكر على رأى واحد فلا يجدى هذا الرأى نفعًا » .

وفى أثناء مفاوضتهم حضر آلاى السوارى من طرة وانضم إلى آلاى الحرس ، ثم عزفت الموسيقية بالسلام الخديوى وهتفوا جميعًا « افندى مزجوق بشا » وأنا العاجز الضعيف كتبت إلى وكيل فرنسا السياسى فى مصر الكونت « دورنج » من غير أن يكون لى به ولا بغيره

من قناصل الدول الأوربية سابق معرفة ولا مقابلة ألتمس منه مخابرة باقى قناصل الدول بما حصل بيننا وبين حكومتنا من الخلاف وأطلب منهم التوسط فى إصلاح ذات البين .

ثم بتنا على ذلك ، وفى صباح الغد حضر لنا المرحوم أحمد خيرى باشا مهر دار الخديوى ومعه محمود سامى باشا ناظر الأوقاف ، من قبل الخديوى ، وقالا لنا : « ماذا تريدون » فقلنا « العدل والمساواة » قالا : « ثم ماذا ؟ » قلنا استبدال ناظر الجهادية برجل وطنى ، وتشكيل مجلس نواب للأمة ينظر فى مصالحها وصوالحها ، وتعديل قوانين العسكرية ، وإبلاغ الجيش إلى ثمانية عشر ألفًا ، ونحن على طاعتنا للحضرة الخديوية .

فذهبا إلى الخديوى ثم رجعا وقال : « قد عزل عثمان رفقى فمن الذى تريدونه ناظرًا للجهادية » « قلنا الذى يختاره الخديوى من الوطنيين » فذهب وعاد ثانية وقالا : « إن الخديوى يقول لكم اختاروا أنتم من ترضونه حتى لا يحصل منه مثل ما حصل من عثمان رفقى » فقلنا قد اخترنا هذا محمود سامى باشا وهو من أولاد المماليك الأول ، ولكنه صدق معنا ولم يقصد الغدر بنا » .

ثم صدرت الأوامر الخديوية بإعادة كل منا إلى آلايه وعزل عثمان رفقى وصار تولية محمود سامى على نظارة الجهادية مع نظارة الأوقاف ،

وأخذ فى سن القوانين العادلة وتعديل القوانين الأصلية وتنقيحها .

ثم لما شاعت الأراجيف الكاذبة فى أوربا بخروج العساكر المصرية عن الطاعة حضر من الحكومة العثمانية وفد برئاسة المشير على نظامى باشا وبمعيته أحمد راتب باشا والى الحجاز الآن لتحقيق أمر العصيان ، فرده الخديوى قائلا : إن عساكرى على طاعتى ، وأنْ ليس ثمَّ عصيان .

وبعد ذلك اجتهدت الحكومة فى غدرنا وأخذنا على غرة أو بحيلة من ضروب الحيل ، ولما لم يوافقها ناظر الجهادية محمود سامى باشا على نواياها صار عزله بتذكرة من رياض باشا رئيس النظار ، وتشدد عليه بأن لا يجتمع بنا ولا يقيم بالعاصمة ، وتعين بدله داود باشا يكن ، وهو عديل الخديوى ولكنه رجل جاهل أحمق مشؤوم فأسرع بإصدار أوامر لا يُستطاع قبولها فردت إليه ونفرت القلوب منه .

فكتبت له فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ بأننا سنحضر بجميع العساكر الموجودين فى القاهرة إلى ساحة عابدين لعرض طلباتنا على فخامة الحضرة الفخيمة الخديوية فى الساعة الرابعة بعد الظهر من يوم الجمعة الموافق ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ ، وكلفته عرض ذلك على الحضرة الخديوية ، ثم كتبت إلى جميع قناصل الدول بذلك ، وأعلنتهم بحفظ جميع رعاياهم فلا خوف عليهم ولا على أموالهم .

وفى الوقت المعين اجتمعت الآلايات البيادة والسوارى والطوبجية فى

رحبة عابدين ، وكان ما هو مسطر فى بطون التواريخ وهو إسقاط الوزارة ، وترتيب مجلس النواب وإبلاغ الجيش إلى القدر المحدد بالفرمان .

وقد حيانا المرحوم الخديوى بإجابة تلك الطلبات العادلة . .

وقد تعرض لنا المستر كوكس قنصل إنكلترا بالإسكندرية حين ذاك وهددنا فلم نعبأ بتهديده لاعتمادى على صدق عزيمتى وطهارة ذمتى .

ثم صار استدعاء شريف باشا من الإسكندرية وتعيينه رئيسًا للوزارة على حسب اختيارنا له ، وتعيين محمود سامى باشا ناظرًا للجهادية ثانية ، وقد توقف شريف باشا فى القبول ٧ أيام ثم رضى بعد ذلك ، وصار توظيفى وكيلا للجهادية .

وفى تلك النظارة صارت الامتحانات وترقى كثير من الباشوات وأمراء الآلايات والقائمقامية وغيرهم من جميع الرتب ، واستكملت الآلات ، وأُنشئت القوانين العادلة ، وتعدلت الرواتب والماهيات بنسبة كل رتبة إلى مادونها ، وصرف الحقوق الموقوفة من زمن مديد ، وأُنشئ مجلس النواب ، وجعل رئيسه أبو سلطان باشا ، وعمَّ العدل واستقامت الأمور ، وحين ذاك عرضت علىّ رتبة لواء (باشا) فرفضتها لئلا يُقال إنى إنما أشتغل لمصلحتى فقط ، وبقيت فى رتبة الميرالاى مدة وكالتى للجهادية .

وأما رفيقاى عبد العال حلمى وعلى فهمى فقد تشرفا برتبة الباشوية الرفيعة .

ثم إن مجلس النواب قرر فى لائحته الأساسية أن يكون لهم الحق فى نظر ميزانية الحكومة ومعرفة كيفية إيرادها ومصروفها ، بشرط عدم الخروج عن دائرة التعهدات الدولية وقانون التصفية ، فلم يجبهم المرحوم شريف باشا لذلك ، لأنه سامحه الله أخذ رأى السيرالت وكيل إنكلترا السياسى فى مصر وقنصل فرنسا أيضًا فأشارا عليه بعدم قبول لائحة المجلس ، فأصر مجلس النواب على الطلب فى تنفيذ لائحتهم فلم يوافقهم وقدم استعفاءه ، واستعفت هيئة نظارته ، ثم تشكلت هيئة جديدة وتولى رياستها محمود سامى باشا وجعل من رجالها حسن باشا الشريعى رحمه الله تعالى ، والمرحوم سليمان باشا أباظة ، والمرحوم عبد الله باشا فكرى ، والمرحوم محمود باشا فهمى وسعادة مصطفى باشا فهمى رئيس الوزارة المصرية الآن .

وجعلونى أيضًا ناظرًا للجهادية لأجل اطمئنان خاطر العسكرية الذين لا يأمنون غيرى فى ذاك الوقت فقبلت ذلك .

ثم أحسن علىَّ برتبة لواء باشا من لدن المرحوم الخديوى توفيق باشا ، وكنت لا أريد ، ولكن قالوا إنه لا يليق أن يكون ناظر الجهادية

برتبة أمير آلاى وفى نظارته اللواءات والفرقاء ، فقبلتها للضرورة ، وشكرت للحضرة الخديوية .

وقد انتظمت الأمور وهدأت الأحوال وصارت العساكر فى أمن من الغدر – ولكن ألحت أوربا على الدولة العلية فأرسلت وفدًا مندوبًا من طرفها تحت رئاسة المشير المرخص درويش باشا بتحقيق ما يقال من العصيان ، فجاء درويش باشا وبحث فى الأمر وكتب للحضرة السلطانية بأن العساكر على الطاعة ، وكذلك كتب المرحوم الخديوى بالحقيقة فأرسلت الحضرة السلطانية إلى الحضرة الخديوية أربعمائة نيشان من أنواع مختلفة للإحسان بها على المستحقين من ضباط العساكر ، وأحسن علىَّ بنيشان الدرجة الأولى المجيدى ، وحضر بوابور مخصوص يحمله سعادة سليم بك ياور الحضرة السلطانية فأبيت استلام النيشان المذكور إلّا من يد مولاى الخديوى .

ثم كتب تلغرافًا إلى المابين الهمايونى يرفع تشكراتى الخيرية للحضرة المقدسة السلطانية ، وتشرفت تلغرافيًّا بقبول تشكراتى لدى جلالة السلطان الأعظم وحصول المحظوظية لدى جلالته . كذا قيل بالتلغراف .

وفى شهر مايو سنة ١٨٨٢ جاءت الأساطيل الحربية الإنجليزية والفرنساوية إلى ثغر الإسكندرية ، وتقدمت للحكومة المصرية لائحة مشتركة من دولتى فرنسا وإنكلترا مجحفة باستقلال الحكومة المصرية

وحقوق الدولة العلية ، وتقدمت منها نسخة للخديوى فرفضها مجلس النظار وقبلها الخديوى ، فاستعفت الوزراء من وظائفها ، وهاجت الأفكار العمومية ، وطاشت العقول الزكية وجميع مجلس النواب ، وقناصل الدول حولى كعرف الضبع يطلبون منى حفظ الأمن والراحة العمومية ، فقلت لهم لا قدرة على ذلك ، لأنى قد استعفيت .

فذهب وفد من مجلس النواب وطلب من الخديوى إعادتى إلى نظارة الجهادية حفظًا للنظام والراحة فصدر الأمر الخديوى بإعادتى إلى النظارة المذكورة ، ثم دعيت إلى الحضرة الفخيمة الخديوية ، فوجدت عنده جميع قناصل الدول ما عدا وكيل إنكلترا السياسى وبحضرته درويش باشا المندوب السلطانى ، فأخذ علىَّ تعهدًا بحفظ رعايا الدول الأجنبية ، وصار إعلان جميع مصالح الحكومة بذلك .

وفى ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ حدثت حادثة إسكندرية المشؤومة بتدبير ذوى الغايات لأجل تشويه أعمالى فى نظر أوربا ، وخدش تعهدى بالحفظ والأمن العمومى ، فأسرعت بإرسال العسكر إلى الإسكندرية حتى مُلئت شوارعها بالعساكر وانتهت الفتنة التى ابتدأ بها أحد المالطية من التبعة الإنجليزية مع أحد حمارة الإسكندرية بإيعاز وتعليم .

ثم صار الشروع فى تحقيقها فى مجلس مختلط تحت رئاسة ذى الفقار باشا محافظ الثغر ، ومن الغريب العجيب أنه لم يبحث أصلا

فى الدماء التى سفكت ، بل كان البحث قاصرًا على معرفة مقدار البضائع التى انتهبها الرعاع ليس إلّا .

وبعد ذلك تشكلت الوزارة بمعرفة الخديوى تحت رئاسة المرحوم الطيب الذكر راغب باشا ، وكنت من رجالها أيضًا ، ثم انتقل الخديوى ودرويش باشا إلى الإسكندرية .

وفى يوم ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ وردت إفادة إلى قومندان عساكر الإسكندرية من طرف أميرال الأسطول الإنجليزى يقول فيه إنه جارى تهديد العمارة الإنجليزية بترميم القلاع والاستحكامات وإنه يطلب تخريب القلاع وهدمها بأيدى العساكر المصرية وإلّا ضرب الإسكندرية وخرب المدينة ودمرها .

فعقد لذلك مجلس تحت رئاسة الخديوى حضره درويش باشا المندوب العثمانى ، وقدرى بك من رجال الوفد المذكور ، وجميع النظار وكبار الذوات المتقاعدين ، وبعد المذاكرة أجمعوا على رفض هذا الطلب والاستعداد للحرب ، ولكن لا يبدأ بها إلّا بعد إطلاق ثلاث قنابل من الأسطول الإنجليزى حتى نكون نحن البادئين بالحرب ، فأعطيت الأوامر بذلك .

وعند إشراق يوم ١٢ يوليو بدأت مراكب الإنجليز بالضرب على

مدينة الإسكندرية وجميع سواحلها ، وانتشب القتال بين مصر والحكومة الإنجليزية .

وأما الأسطول الفرنساوى فاعتزل جانبًا كالمتفرج . وضربت الطوابى حتى تهدمت استحكاماتها .

وفى أثناء الحرب خرج سكان المدينة مهاجرين منها خوفًا وهلعًا ، وفى اليوم الثامن انهزمت العساكر ، فرجعت إلى كفر الدوار واتخذت خطًّا دفاعيًّا ، وتراجع المنهزمون إلىّ ، وفى ١٤ يوليو أرسلت القطار الخديوى لاستحضار الخديوى ومعيته ومن معه من النظار ، ولما وصلت القطارات إلى سراى الرمل لركوب الحضرة الخديوية ورجوعه إلى عاصمة بلاده أبى أن يعود ، وأسرع فى الذهاب إلى رأس التين بعائلته ومن بمعيته ، وانحاز إلى السفن الإنجليزية .

واستدام الحرب إلى أن قدر الله تعالى شأنه الخذلان العظيم فى التل الكبير كما هو معلوم للجميع ، وتم الأمر بنفينا إلى جزيرة سيلان وخرجنا من مصر فى يوم ١٩ صفر الخير سنة ١٣٠٠ على قطار مخصوص إلى السويس ، وفى سبعة عشر منه بارحنا الثغر المذكور على مركب إنكليزى اسمه « مربوطة » وفى أول شهر ربيع الأول خرجنا من السفينة إلى ثغر « كولومب » ومكثنا بها تسع عشرة سنة إلى أن تشرفت جزيرة سيلان بزيارة كريم الشيم عظيم الرأفة والحنو الدوق (كرنوال دريورك) ولى عهد

الحكومة الإنجليزية وتشرفت بزيارة سموه فى مدينة كندى ، وتفضل على بالسؤال عن حالى وما أقاسيه من تباريح الغربة وذل النفى ، فقلت لسموه الإمبراطورى إنى أعتبر تشريف سموه إلى هذه الجزيرة وتشريفى بإقبال سموه سبباً عظيماً لإنالتى نعمة الحرية ، والعود إلى وطنى العزيز من لدن مولاى الخديوى عباس باشا الثانى .

فقال لى وهل تعرفه فقلت نعم وقبلت يد سموه منذ كان فى سن ١٠ أعوام ، فوعدنى خيراً ، فشكرت ودعوت ثم أحسن علىَّ بسيجارة ملوكية قبلتها أدباً لحفظها تذكاراً للطف سموه ولم أحرقها بنار .

وفى ٦ صفر الخير سنة ١٣١٩ صدرت الإدارة الخديوية بالرخصة لى بالعود إلى مصر والإقامة فيها .

إنى أرجو من مكارم سمو مولاى الخديوى عباس باشا تمام رضاه وقد عرضت لسموه العالى تشكراتى ودعواتى الخيرية الصادرة من صميم الفؤاد وإخلاص النية .

وقد تفضل حفظه الله سبحانه وتعالى بحملى وعائلتى إلى مصر على مصاريف حكومته الخديوية ، فأرجو من الله أن يوفقنى لما يحبه ويرضاه ، هذا وإنى أبرأ إلى الله من حولى وقوتى فى كل ما ذكرته أو فعلته .

وأنى يكون للمخلوق العاجز الضعيف مثلى من قوة تدافع بها إرادة

أوربا وقوة إنكلترة العظمى ، فضلا عن بطش حكومة مصر القادرة وموافقة جلالة السلطان الأعظم على الإعلان بعصيانى فى جورنال الجوائب وانحياز حاكم البلاد إلى المحارب لنا ، وإنما كان ما كان بقضاء الله وقدره ولا راد لقضاء الله وقدره وليس فيه إلّا مجرد الكسب الاختيارى الذى أثاب أو أعاقب عليه ، ولم يخطر ببالى أصلاً الاقتداء بالفاتحين والمتغلبين ، ولا بتأليف دولة عربية كما أرجف المرجفون .

لأنى أرى ذلك ضياعًا للإسلام عن بكرة أبيه ، وخروجًا عن طاعة الله ورسوله ﷺ وعلى آله والبرهان على ذلك ارتفاع صوتى بالمحافظة على حياة المرحوم الخديوى السابق كمحافظتى على نفسى بكرة وعشيًّا ، مع احترام أعضاء عائلته الكريمة ، يشهد لى بذلك ما هو واضح بدفتر الأخبار اليومية المحفوظ بالديوان الخديوى وإرادته الخديوية الصادرة إلى مجلس التحقيق بعد الخذلان العظيم بالتل الكبير ، وسجننا مع جميع رجال العسكرية وأعيان البلاد وحكامها وعلمائها وقضاتها وتجارها مما هو معلوم لدى الجميع وغنى عن البيان .

والله الذى لا إله إلاّ هو فالق الحب وبارئ النسمة أنى ما خدمت بذلك دولة إنكلترا ولا فرنسا ، ولا كنت آلة لدولة ما ، ولا للخديوى الأسبق المرحوم إسماعيل باشا ، ولا للمرحوم حليم باشا ولا أوصى إلىَّ بمساعدة الدولة العلية من عرش عظمتها ، وإنما كنت أجتهد فى حفظ

استقلال بلادى مع نيل الحرية والعدل والمساواة لأهل بلادى المساكين ، وأنا خادم لهم ، وناديت سرًّا وإعلانًا بتأييدها وتأييد الذات الخديوية .

ولكن المقادير الإلٰهية غالبة فانعكست المرئيات ، وتوالت الصعوبات لنفاذ ما هو كائن فى علمه أزلا سبحانه وتعالى .

وإنى والله لا أكره شركسيًّا ولا روميًّا لذاته ، وإنما أكره الأعمال المغايرة للعدالة والإنسانية والآداب الشريفة ، وأحب العدل والمساواة بين بنى الإنسان

والحمد لله أولا وآخرًا ، والشكر لله ولحضرة الفخمة الخديوية التى منحتنى نعمة العود إلى وطنى العزيز لأحظى برؤية ذاته الكريمة ورؤية أبناء وطنى الكرام قبل أن أفارق هذه الحياة الدنيا والحساب على الله .

أحمد عرابى الحسينى المصرى

رقم الإيداع	١٩٨٣/٣١٧٢
الترقيم الدولى X -٠٥٠١-٠٢-٩٧٧	ISBN

١/٨٢/١٨٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)